في كلمته أمام
جمعية خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت

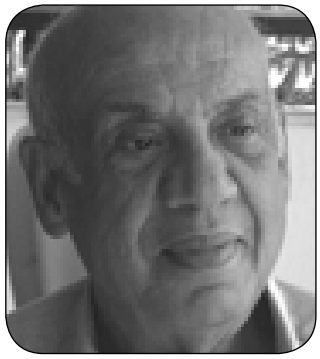

"عبد المحسن القطان يدعو إلى الاستثمار في بحوث تترجم المعرفة والأفكار إلى مشاريع اجتماعية"

بيروت – دعا السيد عبد المحسن القطّان، رئيس مجلس أمناء مؤسسة عبد المحسن القطان، الجامعات ومراكز البحث في الدول العربية إلى الاستثمار في البحوث، وبخاصة ذلك النوع الذي يترجم المعرفة والأفكار إلى مشاريع اجتماعية، مشيراً إلى أن الدول العربية "بحاجة ملحة لنوع من التنمية تحقق فروقاً جديّة، تتجه نحو المصلحة العامة، وليست محكومةً بالمصالح الشخصية، كما كانت عليه الحال في العقود الأخيرة".

وكان القطّان ألقى، مطلع تموز الماضي، كلمة أمام جمعية خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت، بصفته أحد خريجي الجامعة، وعضو مجلس أمنائها، تحدث فيها عن تجربته الفريدة كطالب في الجامعة، وأحد الفاعلين الأساسيين في عملية التنمية فلسطينياً وعربياً، وهذا نصها:

"في أواخر العام 1947 التحقت بالجامعة الأمريكية في بيروت، كانت المرة الأولى في حياتي التي أغادر فيها وطني فلسطين.

وفي الوقت الذي كنت أهيئ نفسي فيه للسفر، كانت أمي تحذرني وتقول لي: إياك والنساء، وبخاصة نساء بيروت! فهن مشهورات بحبهن للرقص. كان ذلك يمثل بالنسبة لها أدنى صور الشهرة. ولم تكن تسمح لي معرفتي بما يمكن توقعه، فلم أشك للحظة واحدة بأنني لن أرى مدينتي الأم يافا لخمسين عاماً تالية.

مثّلت الجامعة الأمريكية لي فضاءً رائعاً للحرية، فضاء مفعماً بالمحفزات لكل من الشابات والشباب، فقد تفاعلوا معاً بصورة لم يكن هناك ما يشابهها في العالم العربي في ذلك الوقت. أتاحت لنا الجامعة مناخاً يحث على تقدير حرية التفكير، وحقنا في التعبير عن أنفسنا، والدفاع عن وجهات نظرنا، وأن نرنو إلى استقلاليتنا. وكان وجود الجامعة في بيروت في الحقيقة ذا مغزى: ففي هذا المكان الجميل الغني بتنوعه، وبأجواء الحرية المريحة فيه، وبتميّزه عن مدننا الساحلية، يمكنك الالتقاء بالعرب والأكراد والأرمن، بالإيرانيين والأوروبيين... كان يمكنك الالتقاء أيضاً بأكثر من 24 طائفة ودينا وعرقاً. العديد منهم كان من اللاجئين، الذين بتنا منهم فيما بعد، وآخرون كانوا ببساطة يتطلعون للعيش فقط في المدينة. ففي هذه المدينة المتدينون، والمحافظون، والليبراليون، والشيوعيون، والقوميون، وكذلك الانتهازيون بكل ما في الكلمة من معنى. لقد ضمت بيروت بين جنباتها شاعرية الطيف وتنوعه واختلافه، رجال ونساء من كل لون وجنس من الشرق العربي، وعلى الرغم من أن ذلك كان يستدعي مدينتي يافا ويذكرني بها بأشكال مختلفة، فإن كوني جزءاً من هذه الجامعة الفريدة منح بيروت أهمية أعظم، وجعل سنتي الأولى مليئة بالإثارة!

كان مدرسونا يقظين، ومحفزين لنا، وجميع مدرسي السنة الجامعية الأولى أتذكرهم، فللبدايات ألق خاص يرسخ في الذاكرة، فمن ينسى المرحوم ستيفان بينروس، الذي كان رئيساً للجامعة في ذلك الوقت، كان يحضر اجتماعات مجلس الطلبة، ويشترك في نقاشاتنا في جو من الحوار المفتوح والاحترام المتبادل. كان الأساتذة يتيحون لنا تحديد امتحاناتنا دون إشرافهم. واستطعت، أنا الشاب الخجول، وبسرعة، أن أبني ثقتي بنفسي. وأخيراً أصبحت محرر مجلة "العروة الوثقى" الطلابية، وعضواً في مجلس الطلبة. لقد منحتني هذه التجارب حياة مفعمة بالغنى، تجربة فيها من التحدي والمغامرة ما يحرض قوى الذات ويستنفرها، ما ولّد لديَّ ثقة عظيمة بنفسي، كان لها أثرٌ بيِّنٌ على حياتي فيما بعد. فلم أخشَ بعد ذلك من التعبير عن رأيي، أو حق الآخرين في مناقشته، أو التردد في الدفاع عنه.

ومن الصور التي ما زالت في الذاكرة مطعم "فيصل"؛ مكان اجتماعنا المفضل، وقد كان يقع مقابل البوابة الرئيسية للجامعة. كانت حالة

"نحن بحاجة ملحة لنوع من التنمية يحقق المصلحة العامة وليس محكوماً بالمصالح الشخصية"

"الدول العربية تمتلك الكثير من الأموال، لكنها ليست ثرية!"

الفقر التي يعانيها العديد منّا لا تمكّنه من الحصول على أكثر من وجبة واحدة في اليوم، وفي العادة كانت في مطعم فيصل، فقد كان صاحبه كريماً جداً معنا، نحن الطلاب الفقراء. ولقد دفعت شهرة هذا المطعم بأبي أحد زملائنا من نابلس أن يعَنوِن رسالته لابنه: "جامعة بيروت الأمريكية/ مقابل فيصل"!

إلا أن الحرية والإثارة التي شعرت بها حين التحقت بالجامعة كدّرتها أحداث النكبة الفاجعة في العام 1948. قفلت حينها عائداً إلى الوطن لملاقاة أمي وأفراد عائلتي، فيافا قد سقطت، ولم يكن العثور عليهم هناك ممكناً. وفي نهاية المطاف وجدتهم في مدينة عمان؛ في بيت بلا نوافذ. واقتضى الأمر أن أتحمل، وأخي الأكبر، مسؤولية إعالة أسرتنا الكبيرة. فقد كان أبي قد توفي منذ سنوات.

لم يكن ممكناً لتلك الفترة المليئة بالأحداث إلا أن تلقي بأثرها على أي شاب؛ ضياع فلسطين، الحرب في الجزائر، صراع العرب والإيرانيين من أجل تأميم نفطهم، والصراعات الأيديولوجية الكبيرة، ولذلك فقد انخرط الشباب في النضال من أجل هذه القضايا. وأذكر أنني وقّعت في العام 1950 على عريضة تدعو إلى تأميم النفط العربي. وقتها استدعاني رئيس الجامعة السيد بينروس إلى مكتبه، ودون أن ينذرني أو يهددني، ذكرني بمسؤولياتي اتجاه عائلتي، ونصحني بألا أخاطر بسنتي الأخيرة في الجامعة بسبب نشاط سياسي متهور. نصحني قائلاً: "التخرج أولاً، ومن ثم قل وافعل ما تشاء".

كنت مجبراً على الالتفات لهذه الملاحظة – فسبعة أفواه تنتظر قوتها في البيت، ستة منهم ملتحقون بالمدارس. وفي الحقيقة فقد قررت، حين وقعت النكبة، أن أبدّل تخصصي الرئيسي من السياسة والاقتصاد إلى التجارة. كنت محظوظاً جداً في أن أكون قادراً على الإفادة من اختصاصي الدراسي في حياتي المهنية، حيث عملت في البداية في الحكومة الكويتية ولعشر سنوات، ومن ثم في شركتي الخاصة في مجال الإعمار، التي أنشأتها العام 1964 لأني كنت بحاجة إلى دخل أعلى يتيح لي إعالة عائلتي التي تكبر.

كان لخريجي الجامعة الأمريكية في بيروت نجاحٌ ملفتٌ في مجالات الطب، والهندسة، والتعليم، والتجارة، وفي حقول أخرى. وكان للعدد الصغير نسبياً للخريجين منذ أن تأسست الجامعة (والذي يصل إلى 50000 تقريباً)، تأثيرٌ في المنطقة لا يُضاهى في مناح عديدة اقتصادية، وسياسية، واجتماعية، لعله أكبر من تأثير مئات الآلاف من خريجي الجامعات العربية اليوم، الذين يتمتعون بمهارات وأدوار قيادية محدودة في صياغة واقع المنطقة وتوجهاتها.

غير أن هذا النجاحَ النسبيَّ لا مغزى له إن لم يواكبه إحساس قوي بالمسؤولية الاجتماعية. حيث يمكن لمنطقتنا أن تغرق اليوم في فوضى أكثر مما هي فيه إذا لم نتيقظ لحقائق مفزعة، كغياب العدالة، والفساد، واللامساواة، والتناقضات التي نمارسها، وحيث جزر من الثروات الهائلة المحاطة بعشرات الملايين من المواطنين المحبطين والمحتاجين. يمكن لكل هذا أن يفضي إلى المزيد من عدم الاستقرار، والعنف، وبالتأكيد إلى الثورة الهدّامة، إلا إذا استعيدت الأموال العربية واستثمرت في تنمية حقيقية طويلة الأمد؛ في الصناعة، وفي أبحاث من الطراز الرفيع، وفي التعليم، وفي التطوير الاجتماعي والاقتصادي وغير ذلك.

وبكلام آخر، فنحن بحاجة ملحة لنوع من التنمية تحقق فروقاً جديّة، تتجه نحو المصلحة العامة لبلداننا، وليست محكومةً بالمصالح الشخصية، كما كانت عليه الحال في العقود الأخيرة.

واليوم، وفي غياب مشروع سياسي أو اجتماعي عام، بات العالم العربي متسامحاً بما يدعو للسخرية اتجاه الفساد بجميع أشكاله؛ فقد تمتلك الدول العربية الكثير من الأموال، إلا أنها ليست ثرية! وعلينا أن نسأل أنفسنا لماذا؟! فالكثير منكم قد ينغمس في تجارة أو استثمار ويعرف أن معظم الأموال العربية تُستثمر هذه الأيام في أسواق الأسهم أو العقارات – وكلا القطاعين غير منتجين عموماً، وخاضعان لتذبذبات كبيرة وأحياناً للانهيار. والكثير من الثروات أحيلت للخارج أيضاً. لماذا؟ لأن فرص البحث عن استثمار ذي معنى، وطويل الأمد ومنتج في بيئة مستقرة من الحرية والديمقراطية وسيادة القانون؛ سواء في الصناعة أم الأبحاث أم التنمية أم التعليم، إنما هي نادرة جداً. وفي مناخات اقتصادية واجتماعية كهذه، فإن الأموال ستهرّب أو تبدّد كما حدث في الأعوام السبعين الأخيرة في معظم الأحوال.

علينا بالتأكيد ألا ننسى بأن هناك استثناءات طبعاً، فهناك أشخاص ومؤسسات حاولت تبديل هذا الوضع، لكن المحاولات بقيت كنقطة في محيط. ولهذا السبب، أناشدكم الاستمرار في دعم الجامعة في مهمتها الكبيرة، وتشجيعها على الاستثمار في البحوث، وبخاصة في ذلك النوع الذي يترجم المعرفة والأفكار إلى مشاريع اجتماعية، وبذلك ستظل الجامعة هي المنارة كما كانت دوماً – والفضاء الذي يحصل فيه الطلاب على مهارات مهنية عالية، وعلاوة على ذلك الإحساس العميق بأهمية الالتزام اتجاه المصلحة العامة، والسعي وراء الحقيقة.

حينما انتهيت من امتحانات السنة الدراسية الأخيرة في العام 1951، كنت مجبراً على بيع فراش نومي لأستطيع دفع ثمن رحلة العودة إلى عمَّان، ومع ذلك فقد غادرت بعقل مفعم بالأفكار، غير خائف من عالم سأواجهه، واثق من قدرتي على التفكير، وعلى تلمس طريقي على الرغم مما تكتنفه من مصاعب. فقد كان التعليم الذي حصلت عليه من جامعة بيروت الأمريكية أساسياً للنجاح الذي حققته في حياتي المهنية، لكنه كان أيضاً أحد البواعث الأساسية التي شجعتني على الاستثمار بجزء أساسي من نتاج هذا النجاح في التعليم والثقافة والتنمية الاجتماعية في فلسطين وفي باقي المنطقة. وفوق ذلك كله، فإن هذا الاستثمار منح حياتي المعنى الأكبر، ومنحني الفخر والاعتزاز بما أنجزته فيها. وكم أتمنى أن تسيروا، أنتم والآخرون، على هذا الدرب".